

لا يمكننا الحديث عن النزعة التوفيقية بين العقل والإيمان أو الفلسفة واللاهوت بمنأى عن الأثر الفيلوني الذي يرد إليه جل المحاولات التي اتخذت من التأويل سبيلا لبناء نسق فلسفة اللاهوت أو الخلاص الفردي الذي يعول على العقل والميثولوجيات دون اعتناق اللاهوت اليهودي أو المسيحي في مدرسة الإسكندرية ، ويبدو ذلك بوضوح في كتابات أمونيوس ساكاس وأفلوطين واكليمنس السكندري وأوريجانوس. فيمكننا التماس الإرهاصات الأولى للتوفيق والتأويل في الترجمة السبعينية التي قام بها أبحار اليهود نحو عام 250 ق. م لنقل الدلالات اللاهوتية اليهودية العبرية التي حوتها الأسفار العشرة الأولى من العهد القديم إلى الثقافة اليونانية . ويميز أستاذنا الدكتور مصطفى النشار بين التأويل الروحي الصوفي الديني الذي كان يقوم به أبحار اليهود في دروسهم وبين التأويل التوفيقي الفلسفي الذي أرسى قواعده أريستوبولس السكندري نحو 155 ق. م (و فيلون نحو 20 ق. م - 50 ق. م) وقد اجتهد الأول في تأويل الآيات التوراتية التي يحمل ظاهرها صفات التجسيم والتشبيه للإله وإحالتها إلى دلالات مجازية تعبر عن وحدانية الإله وتنزيهه وتفرد صفاته المجردة وتأليفه بين وصايا موسى الشرعية وتعاليم الفلاسفة الأخلاقية ، وقد تأثر بهذا الضرب من التأويل جل الغنوسيين اليهود والمسيحيين، أما اللاهوتيون المسيحيون المحافظون من أمثال أغناطيوس الأنطاكي وأثناسيوس السكندري فقد رغب عن هذا المنحى لأنه يتعارض تماما مع عقيدة الكريستولوجي التي تهدف إلى إثبات ناسوتية المسيح وألوهيه في سياق واحد. أما فيلون فكان يسعى في تأويلاته للنصوص المقدسة إلى إثبات وحدة الحقيقة على الرغم من تباين تجلياتها وتعدد سياقاتها، فليس هناك خلاف عنده بين تصورات الفلاسفة العقلية للإله أو المثل الأخلاقية وبين اللاهوت اليهودي والتعاليم الشرعية ، فالفلاسفة عرفوا الله عن طريق العقل بينما عرفه علماء اللاهوت عن طريق الوحي ، العرض وليس في الجوهر. وقد حاول اللاهوتيون المسيحيون الاستفادة من هذا المنحى في محاولة ربطهم بين صفات المسيا وتجليات الرب في العهد القديم وشخصية يسوع وكذا في الربط بين الأقانيم الثلاثة وصياغتها في قانون الإيمان الذي يجعل من الأب والابن والروح القدس تجليات لحقيقة واحدة وهي جوهر الإله ذاته. وينزع معظم مؤرخي اللاهوت المسيحي إلى أن فيلون السكندري ، هو أول من عمد إلى تفسير أسفار العهد القديم تفسيراً رمزياً يتناسب مع الروح الأفلاطونية التي تشبع بها، فكان ينظر للنص على اعتباره كائن حي يمثل اللفظ جسده ويمثل المعنى روحه وعلى الفيلسوف أن يتحاور مع هذه الروح لتفصح عن الدلالات الكامنة في الألفاظ الغامضة ، وقد أرسى بذلك أولى قواعد التوفيق بين المنقول والمعقول أو الدين والفلسفة ، وتشير العديد من الكتابات إلى أثر ربطه بين الدلالة اللاهوتية لـ "الكلمة" وبين الدلالة الفلسفية لـ اللوجوس على الفكر العقدي المسيحي ولا سيما رسائل بولس وإنجيل يوحنا، الهيليني والمفهوم اليهودي النصي التقليدي والغنوسي أيضاً، اللوجوس أو الكلمة يحتل درجة وسطى بين الله أو الألوهية وبين المخلوق ، فاللوجوس عنده ليس أزلياً كاله ، كما أنه ليس فانيا كالمخلوقات، لله ، أو هو ابن الله، وتبعاً لهذا سيكون له بدء، بالمعنى الزمني ، وإنما من حيث مرتبة الوجود، المسيحيين الذين ناقشوا قضية الكريستولوجي من منظور فلسفي ، رأسهم اكليمنس السكندري وأوريجانوس . ذلك فضلاً عن تصويره للخلاص – الذي جعل فيه المعرفة الفلسفية والتأمل السبيل للاتصال المباشر بالله، الذي أثر في كتابات علماء اللاهوت والفلاسفة الذين جعلوا الرهبانية والبتولية البوابة التي ينفذ منها المؤمن إلى الاتحاد بالمسيح حيث تحقق الخلاص الأبدي مثل القديس (بندكتس نحو 480-547م) و القديس (أنسلم 1033 – 1109) وذلك في عدة مؤلفات أهمها المجازي في النواميس المقدسة . وتشير بعض الدراسات المعاصرة إلى وجود أثر مباشر للنهج الفيلوني في تخليص نصوص العهد القديم من القصص الخرافي والميثولوجيات، والمسحة العنصرية التي تهدف إلى الهيمنة السياسية، ولباس اليهودية ثوباً أخلاقياً عالمياً، وجعل الدلالات الرمزية القاعدة الرئيسة لفلسفة اللاهوت – على كتابات اللاهوتيين المسيحيين الأوائل مثل القديس بولس و لوقا والقديس يوستينوس والقديس إيريناؤس. والمثبت أن جل شراح الكتاب المقدس من الآباء الأوائل على اختلاف نوازعهم قد تأثروا بمنهج فيلون وبلغته المجازية وتأويلاته التي غلبت عليها المسحة الفلسفية ، فقد أخذوا عنه وصفه للإله بأنه الأب "أبو العالم وملكه" ومصدر كل كمال ومنبع الفضيلة والعلم والجمال والحب ، غير أنهم رفضوا ما جاء في فلسفته عن استحالة اتصال الإله الواحد بالمادة "ناسوتية الإله" ، الكريستولوجية، ووجدوا في حديثه عن اللوجوس الذي يعنى العلم الإلهي وكلمته ضالتهم إذ جعلوا من هذا اللوجوس هو الابن والكلمة التي صارت جسداً في شخص يسوع ، ووصفوه بنفس الصفات الفيلونية (الإنسان الإلهي أو آدم السماوي ، أو مخلص البشرية، أو صورة الله . (ولا سيما في كتابات ترتليانوس القرطاجي الكريستولوجية تلك التي جعل فيها يسوع هو الجوهر الإلهي أو ابن الرب عوضاً عن الدلالة الفيلونية التي كان الجوهر فيها يدل على الملاك الحامل لكلمة الله أو ابنه البكري على سبيل المجاز الذي ساعده في خلق العالم باعتباره وسيطاً بين الله والمادة. وقد طور أمونيوس ساكاس السكندري نحو (5-17-242 م) الأفلاطونية و ألف نسقاً جديداً مع تلاميذه أفلوطين و

لونجينوس وأوريجانوس مفعم بالثقافة الهيلينستية – الميثولوجيات ، اللاهوت ، التنسك الفيثاغوري البوذي – الذي عرف بعد ذلك بالأفلاطونية المحدثة والذي يعيننا من تعاليم أمونيوس أمرين ، أولهما اراءه في الألوهية التي أثرت تأثيرا مباشرا في التأويلات الفلسفية للعقيدة الكريستولوجية وثانيهما نزعتة التوفيقية التي فتحت الباب امام المؤولين المسيحيين والفلاسفة المدرسين الأوائل الذين حاولوا إيجاد صيغ مقبولة للتأليف بين الإيمان والعمل ، وعلى رأسهم القديس أوغسطينوس. فقد ذهب أمونيوس ساكاس بتأثير من حكايات الفيلسوف الأثيني الخيروني بلوتارخ وألبيونس الازميري او الكينوس إلى وجود إله متعال خالد مجرد ومنزه عن المادة ، وقد انبثقت عنه النفس الكلية أو العقل الأعلى الذي قام بخلق العالم والكائنات الروحية التي تتوسط بين الإله وبين سائر الموجودات والبشر، وقد انقسمت هذه الكائنات الروحية إلى قسمين أرواح نورانية خيرة وأخرى نارية شريرة – ملائكة وشياطين – ، وقد اختلطت الأيونات الخيرة والشريرة فكونت النفس البشرية التي سقطت على الأرض ثم أسفت القوى العاقلة الطاهرة منها على ذلك المصير فاشتافت إلى الاتحاد بمصدرها الإلهي وطلبت الخلاص من النفس الكلية او اللوجوس، وقد أضاف ساكاس على هذه النظرية المتواترة في كتابات الهرامسة والغنوسيين نظريته في العناية الإلهية والتقمص 4 ولا غرو في أن هذه التعاليم قد أثرت في فلسفة أكليمندس السكندري وترتليانوس وأوريجينوس ذلك فضلا عن منهجه في التوفيق أو التأليف بين الأنساق الفلسفية المتباينة التي تعتمد في المقام الأول على تغيير دلالات الألفاظ والمصطلحات وتطويعها جميعا لخدمة النسق الجديد المراد إبرازه ، وتعتبر تأويلات اوريجانوس للمزامير وإصحاحات إنجيل متى واجتهاده في ربط المسيا اليهودية بشخص المسيح عن استيعابه لهذا المنهج التوفيقى. وسوف نحاول في السطور التالية الوقوف بشيء من التفصيل على اهم الاتجاهات التأويلية التى تمثل فلسفة اللاهوت في القرون الخمسة الأولى من ميلاد المسيح ، وسوف نشير إلى مصادر الأفكار التى انتحلوها من الأنساق الفلسفية السابقة عليهم لتأكيد ما قدمناه.